خطبة صلاة الجمعة 9/ 10/ 2015 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(زاد المسافر–4)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الإسراء: 1].

وحول المسجد الأقصى أرض الشام.

﴿ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (70) وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: 70، 71]. والأرض التي نجى الله إبراهيمَ ولوطاً إليها هي: أرض الشام.

﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴾ [الأنبياء: 81] والأرض المباركة التي كانت تجري الرياح إليها هي: أرض الشام وفيها مملكة سليمان.

أيها الإخوة:

عنوان خطبة اليوم **(زاد المسافر –4)**

تحدثت الخطب الماضية عن أحكام فقهية متعلقة بالسفر، كحكم السفر، وحكم الإقامة في البلاد غير الإسلامية، وحكم التجنس بجنسية البلاد غير الإسلامية، وحكم الصلاة في البلاد التي لا ينتظم فيها الليل والنهار، ونحوها.

وتتحدث خطبة اليوم عن فضائل الشام وفضل السفر إليها والإقامة فيها، ليعلم من أراد السفر منها أو سافر أنه إن كان محتاجاً أو مضطراً فلاحرج عليه ولكن إن لم يكن فقد فاته خير كبير.

وليعلم من أقام بها وثبت على شدَّتها وضرَّائها الخيرَ الذي يناله فيها.

أيها الإخوة:

في المكتبة الإسلامية كتب كثيرة تجمع أحاديثَ وآثاراً تتحدث عن فضل الشام وأهلها، وتتحدث كتب أخرى في فضل مدنها وساكنيها:

(فضائل الشام ودمشق) لأبي الحسن الربعي، (مناقب الشام وأهله) لابن تيمية، (فضائل الشام) لأبي سعد السمعاني، (تاريخ حمص) لعبد الغني بن سعيد المصري، (طبقات أهل حمص) لمحمود الدمشقي، (الإصابة فيمن نزل حمص من الصحابة) للدكتور منير الحايك، (الروضة الرَّيا فيمن دفن بداريا) أي من الصحابة لعبد الرحمن بن عماد الدين الدمشقي، (كنوز الذهب في تاريخ حلب) لموفق الدين أبي ذر سبط ابن العجمي، (تاريخ الرقة ومن نزلها من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين والفقهاء والمحدثين) لمحمد بن سعيد بن عبد الرحمن القشيري، وغيرها كثير.

وكثرة هذه المؤلفات تنبيك عن فضل هذه البلاد وشرفها، لذا كنتم ترون أفراداً وأسراً وجماعات تسافر من بلادها وتقصد الشام موطناً مضطرة أو مختارة.

وحسبكم أن تعلموا على سبيل المثال أن أُسراً تفاخر بها الشام جاءتها من بلاد أخرى:

فآل الموصلي والطباع والباني جاؤوا إليها من العراق.

وآل المصري والطنطاوي والفيومي أمُّوها من مصر.

وآل البحري واليماني والمالح قصدوها من اليمن.

وآل التونسي والمغربي والكتاني سعوا إليها من المغرب العربي.

وجاء الشام من تركيا آل المرعشلي والجوخدار والأورفه لي، وجاءها من الألبان: الألباني والأرنؤوط والبوسنوي.

ومن الأفغان: الأغواني والبرهاني والداغستاني.

ومن الشركس والشيشان: آل أباظة والعسلي وباغ.

ومن الأكراد: آل الأيوبي وكفتارو والشيخاني.

وهكذا رأيت الشام تضم بركتُها أقواماً مباركين جاؤوها من كل فج عميق، لما علموا من خير الشام وفضل الشام وفضل الإقامة فيها.

ودُفِنَ في الشام من أعلام الصحابة مالم يحصه العدد:

سلام على سيدنا خالد بن الوليد وثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسعيد بن عامر، وسلام على سيدنا أبي الدرداء وبلال الحبشي ومعاوية بن أبي سفيان.

ودفن فيها من أعلام التابعين والمحدثين والمفسرين والفقهاء والأولياء مازاد في بركتها بركة.

فمن منكم لم يزر قبر الشيخ محيي الدين بن العربي وأصله من بلاد المغرب، وكان إلى جواره الأمير عبد القادر الجزائري، ومن منكم لم يقرأ الفاتحة على ضريح السلطان صلاح الدين الأيوبي، أو عند قبر المجاهد نور الدين الشهيد وأصله من الترك.

ففضائل الشام وبركة هذه البلاد نادت الخلائق ليقصدوها واستحثَّت خطاهم ليؤمُّوها، وها أنا أقرأ عليكم شيئاً مما جاء في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن فضائل الشام وأهلها.

- روى الإمام البخاري ومسلم بسنديهما عن معاوية رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

«لا يَزَالُ مِنْ أُمَّتِي أُمَّةٌ قَائِمَةٌ بِأَمْرِ اللهِ، لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلا مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللهِ، وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ»، قَالَ عُمَيْرٌ: فَقَالَ مَالِكُ بْنُ يُخَامِرَ: قَالَ مُعَاذٌ: وَهُمْ بِالشَّأْمِ.

وفي رواية الإمام أحمد: وَهُمْ أَهْلُ الشَّامِ.

- روى الإمام الترمذي بسنده عن معاوية بن قرة عن أبيه قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إِذَا فَسَدَ أَهْلُ الشَّامِ فَلا خَيْرَ فِيكُمْ، لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي مَنْصُورِينَ لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ»**. [قَالَ أَبو عِيسَى: (هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ)].

- روى الإمام البخاري في (كتاب الفتن) عن ابن عمر قال النبي صلَّى الله عليه وسلَّم: **«اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي شَامِنَا، اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي يَمَنِنَا»**، قَالُوا: وَفِي نَجْدِنَا، قَالَ: **«اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي شَامِنَا، اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي يَمَنِنَا»**، قَالُوا: وَفِي نَجْدِنَا، فَأَظُنُّه قَالَ فِي الثالثة: **«هُنَالِكَ الزَّلازِلُ وَالْفِتَنُ، وَبِهَا يَطْلُعُ قَرْنُ الشَّيْطَانِ»**.

[قال أَبو عِيسَى الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَوْنٍ].

- روى الإمام أحمد بسنده عن زيد بن ثابت قال: بَيْنَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نُؤَلِّفُ الْقُرْآنَ مِنَ الرِّقَاعِ، إِذْ قَالَ: **«طُوبَى لِلشَّامِ»**، قِيلَ: وَلِمَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ ؟، قَالَ: **«إِنَّ مَلائِكَةَ الرَّحْمَنِ بَاسِطَةٌ أَجْنِحَتَهَا عَلَيْهَا»**.

-روى الإمام الطبراني في مسند الشاميين عن عبد الله ابن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: «**رأيت عمود الكتاب انتزع من تحت وسادتي، فأتبعته بصري، فإذا هو نور ساطع إلى الشام**».

وفي رواية:: «...، **فإذا هو نور ساطع عُمد به إلى الشام، ألا وإنَّ الإيمان إذا وقعت الفتن في الشام**».

وفي رواية: «**إني رأيت أن عمود الكتاب انتزع من تحت وسادتي، فأتبعته بصري، فإذا هو نور ساطع حتى ظننت أنه مذهوب به، فعُمد به إلى الشام، وإني رأيت أن الفتن إذا وقعت أن الإيمان بالشام**».

- روى الإمام أحمد والنسائي والطبراني عن سلمة بن نفيل قال النَّبِيَّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَلا إِنَّ عُقْرَ دَارِ الْمُؤْمِنِينَ الشَّامُ**» عقر دار المؤمنين أي: موضع دار المؤمنين، قال ابن الأثير الجزري: يَكُونُ الشَّامُ يَوْمَئِذٍ آمِناً مِنْ الفتن، وأهلُ الْإِسْلَامِ بِهِ أسلمُ.

- وروى الإمام أحمد عن أبي الدرداء أَنَّ رسُولَ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**فُسْطَاطُ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَ الْمَلْحَمَةِ الْغُوطَةُ إِلَى جَانِبِ مَدِينَةٍ يُقَالُ لَهَا دِمَشْقُ، من خير مدائن الشام**».

والفسطاط المدينة التي فيها مجتمع الناس.

قَالَ الْعَلْقَمِيُّ: وَهَذَا الْحَدِيثُ يَدُلُّ عَلَى فَضِيلَةِ دِمَشْقَ وَعَلَى فَضِيلَةِ سُكَّانِهَا فِي آخِرِ الزَّمَانِ وَأَنَّهَا حِصْنٌ مِنَ الْفِتَنِ.

- روى أبو داود وغيره عن ابن حوالة قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**سَيَصِيرُ الأَمْرُ إِلَى أَنْ تَكُونَ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ: جُنْدٌ بِالشَّامِ، وَجُنْدٌ بِالْيَمَنِ، وَجُنْدٌ بِالْعِرَاقِ**»، فَقَالَ ابْنُ حَوَالَةَ: خِرْ لِي يَا رَسُولَ اللهِ إِنْ أَدْرَكْتُ ذَاكَ، قَالَ: «**عَلَيْكَ بِالشَّامِ، فَإِنَّهُ خِيرَةُ اللهِ مِنْ أَرْضِهِ، يَجْتَبِي إِلَيْهِ خِيرَتَهُ مِنْ عِبَادِهِ، فَإِنْ أَبَيْتُمْ فَعَلَيْكُمْ بِيَمَنِكُمْ، وَاسْقُوا مِنْ غُدُرِكُمْ، فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ تَوَكَّلَ لِي بِالشَّامِ وَأَهْلِهِ**».

وفي رواية: «**فإن الله قد تكفل لي بالشام وأهله**». فكان أبو إدريس الخولاني إذا حدث بهذا الحديث التفت إلى ابن عامر، فقال: من تكفل الله به فلا ضيعة عليه.

- وروى الإمام أحمد والترمذي وغيرهما عن أبي هريرة عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**الإِيمَانُ يَمَانٍ، وَالْكُفْرُ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ، وَإِنَّ السَّكِينَةَ فِي أَهْلِ الْغَنَمِ، وَإِنَّ الرِّيَاءَ وَالْفَخْرَ فِي أَهْلِ الْفَدَّادِينَ: أَهْلِ الْوَبَرِ وَأَهْلِ الْخَيْلِ، وَيَأْتِي الْمَسِيحُ – أي الدجال– مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ، وَهِمَّتُهُ الْمَدِينَةُ، حَتَّى إِذَا جَاءَ دُبُرَ أُحُدٍ تَلَقَّتْهُ الْمَلائِكَةُ، فَضَرَبَتْ وَجْهَهُ قِبَلَ الشَّامِ، هُنَالِكَ يَهْلَكُ.. هُنَالِكَ يَهْلَكُ**».

وبهذا الحديث استدل الشراح أن الدجال يهلك في الشام.

أيها الإخوة:

هذه بعض الأحاديث والآثار في فضل الشام والإقامة فيها، وقد كتب أحد الباحثين عندما جمع أحاديث عن فضل الشام في مقدمة كتابه:

أما بعد؛ فهذه أحاديثٌ في فضائل الشام ودمشق، حتى يعلم الناس أن في فضل الشام أحاديث كثيرة صحيحة، وحتى يعرف المستوطنون فيه فضل ما أنعم الله به عليهم، فيقوموا بشكره بالعمل الصالح, وإخلاص العبادة لوجهه سبحانه وتعالى، وإلّا فإن الأمر كما قال سلمان الفارسي لأبي الدرداء –رضي الله عنهما–: (إن الأرض المقدسة لا تقدس أحدًا، وإنما يُقدس الإنسان عمله) [رواه مالك في الموطأ].

اللهم آمنا في أوطاننا، وارفع عنا مانزل، وعجل لنا بالفرج واجعله محفوفاً بلطفك.

والحمد لله رب العالمين